

الأبعاد الثقافية للعنف الإستعماري

أ/ بلعربي منور

أستاذ مكلف بالدروس بقسم علم الاجتماع - جامعة الجيلالي لياس - سيدي بلعباس -

تتعرض الشخصية الجزائرية في عصرنا الحالي إلى أزمات وصدمات عديدة تجعلها في بؤرة اهتمام كثير من المنشغلين بالعلوم الإنسانية، ولقد تصاعدت الأزمات والصدمات في الفترة الأخيرة بشكل لافت للنظر بحيث جذب اهتمام بعض المفكرين والعلماء إلى تأمل ودراسة ملامح هذه الشخصية محاولين فهمها عليهم - انطلاقا من هذا الفهم - يسهمون في تشخيص مشاكلها ووضع الحلول لها قصد خلق جو من الانسجام والتوافق بين أفراد المجتمع.

وحيث أن المجتمع الجزائري قد شهد تحولات اجتماعية وثقافية أثرت على مكوناته ومدى انسجامها مع بعضها البعض كان أهمها على الإطلاق: الاستعمار ثم النزوح الريفي اللذين أظهرنا لنا نوع من المشاكل أرجعه البعض إلى المدينة والمدينة كمفهوم ومدى انسجام الفرد الجزائري معها وأوزعها البعض الآخر إلى طبيعة شخصية الجزائري التي تتميز عن غيرها بجملة من السمات منها: نزعة الفرد الجزائري إلى العنف الحنين إلى الريف ورفض التمدن، النزعة القبلية، الانقياد لما هو ديني، الاتحاد في الأزمات والافتراق عند الرخاء، التوحد بالمعتدي، سيادة التفكير الغيبي، نقص الموضوعية، التمرکز حول الذات على حساب التمرکز حول المجتمع، النظرة التأميرية في تفسير الأحداث، النزعة التدميرية في التعامل مع المؤسسات الرسمية...

وحيث أن العنف هو موضوع الساعة في مختلف المجالات علمية كانت أو سياسية أتشرف بتقديم هذا المقال كمساهمة بسيطة مني في المجال العلمي عموما وفي هذا الموضوع على الخصوص، وهو بعنوان: "الأبعاد الثقافية للعنف الإستعماري" أوافق فيها النظرية النفسية القائلة بانتقال السمات الثقافية ذات الطابع النفسي بين الأجيال.

والتي تعتبر عادات الشخص ووجود فعله تجاه محيطه العائلي والاجتماعي هي مكمّن توازن جهازه النفسي وانطلاقا من هذا الاعتبار كان الاهتمام بالمرحلة الطفولية والتربوية التي يتلقاها الإنسان في هذه المرحلة علاوة على العوامل الوراثية التي تدخل في نموه النفسي والبيئة الحضارية التي تتشكل فيها أنظمتها النفسية اجتماعيا.

وهو الرأي الذي ذهب إليه كارل غستاف يونغ Carl Gustave Jung في دعواه القائلة بانتقال الخبرات اللاشعورية بين الأجيال والتي أطلق عليها اسم: "اللاشعور الجمعي" (1). أو الدراسات

فئة بالمحاور
ثقله آنذاك
بي الطبقة

يل مفعول
مينة الأمم
ناولة جس
سكري على

-Gilbert, I
ين

Mabrouk
dans la R
-Mohamm
1962), E
-Redha, ,
Dahlab, ,
صحفي

- Mabrou
- Fathi, A
Redha, M
op.cit, p2,
ية لليسر

- Bernard
p99.
- Mohamm
des juriste
- Redha, ,

- Redha, ,
- Mabrou
- Redha, ,

الية الشؤون

- Redha, ,
21- Alist

ه
إن وجود
كانوا م
وا
عمرو بن
ذلك أن
القرون ال
الكنيسة
البطش ب
ف
بحضارت
واجبه ته
ويمثل الث
وه
السيف أو
السقوط
ميلادي ذ
الإسلامي
سنة 1830
ور
الفرنسي
الجزائر ال
تطاً أقدام
الفرنسي
الجزائرس
قائلاً: "س
حيث ردد

المجلة المغاربية

التي أثبتت توارث المجد والشهرة بين الأجيال(2). لكن أقتصر في هذا المقال على دلالة الحوادث التاريخية على رسوخ السمات الثقافية للشعوب، من بينها العنف.

إن المفاهيم الثقافية المشكلة للشخصية الميالة للعنف أو السلم ليست شظايا متناثرة لا يمكن جمعها أو حصرها بل هي رصيد معرّي تراكمي قابل للجمع والحصر ثم الدراسة.

وليس من المبالغة في شيء أن تعزى أسباب العنف الاستعماري مثلاً للخلفية الثقافية أو لكون الإنسان الأوروبي يوناني الأصل مسيحي المعتقد قد تشكلت نفسيته في بوتقة تاريخ طويل من العنف والعنف المضاد أنتج لنا رصيد من الأسباب الثقافية التي تسوغ لذلك الإنسان استسهال البطش بالأخر أو استعمال العنف والإرهاب على الأقل إذا رأى في ذلك بعض النفع أو الفائدة.

وهو ما جعل نيتشه -وهو الابن الشرعي لتلك الثقافة- يعتقد في بعض الأحيان أنه لن يستطيع البناء وذلك لفرط ما وجد أمامه من بناءات أخلاقية ينبغي تدميرها قبل كل شيء إذ أن كل ما بني في ميدان الأخلاق منذ كونفوسيتوس إلى سقراط ومن المسيح إلى كانط ليس فيه حتى ما يستحق أن يرمم أو يعدل.

كما أن المسيحية في نظر نيتشه ليست إلا أكنوية كبيرة من أكايب اليهود اختلقوها في عهد عبوديتهم وذلتهم ليقبلوا بها الحقائق ويسبقوا على أنفسهم وعلى من كان في مثل حالهم من العبيد المضطهدين نعوته طبعوها بطابع الإنسانية وما هي في الحقيقة غير تمويه على التاريخ.

من أجل ذلك كله فليس من الغريب القول بأن المستعمر لم يقف يوماً على تقييم تصرفاته أو تلاوة فعل الندامة على ضحاياه مثلما هو مفروض أن يفعله كل مسيحي إذا أخطأ.

بل الواقع أن المخطط الاستعماري كان في الغالب إضافة إلى تجاهله لضحاياه يسخر دوماً من الانتقادات الموجهة إليه بالقدر الذي يسخر من كل التبريرات التي يسوقها لنا دون أن ينتظر منا قبولاً أو رفضاً.

ومما تعرض له الشعب الجزائري سياسة التهجير القسري من الأراضي الصالحة للزراعة أو على حد تعبير روبير جولان في كتابه السلام الأبيض والذي اعترف بذلك الضيم في قوله: "بكل تأكيد يجب أن لا ننسى سرقة الأراضي وممارسة العبودية والتعذيب وهام جداً أيضاً أن نحدد موقع كل ذلك ضمن إطار ديناميكتنا الثقافية". (3)

وقد عبر عن تلك السياسة بدقة الماريشال بيجو في الخطاب الذي ألقاه في البرلمان يوم 15 جانفي 1840م حيث قال: "إنني لم أجد أية وسيلة فعالة لإخضاع الجزائر أحسن من مصادرة الأملاك الزراعية" (4)

مثلهم مثل الهنود الحمر الذين لم يعيشوا محاطين بعلماء الأنثروبولوجيا والمبشرين فقط بل إن وجود المستعمر كان أخطر عليهم من تسليد الأفكار الغربية المخالفة لتقافتهم الأصلية إذ أنهم كانوا مهدين بخسران أراضيهم بل أنفسهم وحريةهم أكثر من أن يساء فهمهم أو تغير ثقافتهم (5). والأخطر من ذلك أن تتلاقح هذه الثقافة مع نفسية تتسم بعدم نسيان العدا - فقد روي عن عمرو بن العاص في شأن الروم وصفهم بأنهم أوشك الناس كرة بعد كرة (6) - أقول والأخطر من ذلك أن تتلاقح هذه الثقافة مع نفسية تتسم بعدم نسيان العدا لتنتج لنا روح التعصب السائدة في القرون الوسطى والمتسمة بالطابع المسيحي اللاهوتي والتي كان شعارها "لا منجاة خارج حظيرة الكنيسة" معنى ذلك أن الشعوب الأخرى لا تكون بطبيعة الحال إلا قبائل متوحشة يجوز بل يجب البطش بها.

فكانوا إذن يربطون كل شيء بأوروبا ونظرتها إلى العالم وأوروبا تنبعث لتحضير العالم بحضارتها وكان شكسبير أول من طرح قضية الاستعمار ويرره حينما جعل "بروس بيرو" يرى من واجبه تهذيب "كالبان" في روايته "العاصفة" والتي يمثل فيها الأول السيد المتحضر غاصب الجزيرة ويمثل الثاني الشخص المتوحش النائر ضد الغاصب.

وكالعادة فإن الغاصب هو الذي يسيطر دائما على الموقف لأن القاعدة آنذاك تنص على أن قوة السيف أولى بالغلبة من قوة الحق، لقد عانت هذه البلاد من شتى أشكال الاستبداد والقهر بعد السقوط المأساوي لقرطبة سنة 146 ق م واحتلال الرومان ولغزو الوندال المخبرين في القرن الخامس ميلادي ثم لغزو بيزنطة سنة 533 م قبل أن تعتق المنطقة في أواخر القرن السابع ميلادي بالفتح الإسلامي.

كما عانت كذلك من ويلات الحروب مع الغرب إلى أن وقعت تحت نير الاحتلال الفرنسي سنة 1830 م.

ورغم ذلك فلم ينسى الأوروبي ما تعرض له يوما على يد الأسطول الجزائري فقد صرح المؤرخ الفرنسي "كاط" إذ ذاك بما نصه: "في الخامس يوليو أمكن للجيش الفرنسي أن يخرق بأقدامه شوارع الجزائر الضيقة مسلحا. تلك الشوارع التي امتعت على الملك "شار لكان" و "لويس الرابع عشر" ولم تصلا أقدام أجدادنا طرقاتها إلا مكبله بالحديد أسرى أو عبيد فهنا أعظم احتلال يسجله التاريخ الفرنسي" (7)، وهو يشير هنا إلى أسرى البحرية والمحاولة الفاشلة التي قام بها "شار لكان" لاحتلال الجزائر سنة 1541 وما نسب للفرانس الفرنسي "بونس دويالاقير" الذي غرز سيفه قرب باب عزون وصرخ قائلا: "سرجع" والتي صارت شعارا من ذلك العهد لكل من فشل في حرب من قادة الغرب الاستعماري حيث ردها مثلا ماك ارتور الأمريكي حينما أخرجه اليابانيون من جزر الفلبين (8).

شعوبنا العرب
الحروب كما
كما
بسهولة نحو
المقاومة في
ومنه
ثم بروز الحد
التي انتشر
والأندلس =
وتخلت عن
تلك الأقط
لأن
تلك الثقا
مستمدة من
اقتاتوا بسبب
فإذا
الرمح أو اله
والتربية والذ
ومن
محت تلك
الإنسان الأ
شخصية م
من
الحضارية

وليس من قبيل الصلصة أن يخرج "جورج بيدو" وزير خارجية فرنسا أيام اندلاع ثورات المغرب العربي عن وقاره ودبلوماسيته في انفعال وعصبية تنم عن حقد فقال: "لن نترك الهلال يتغلب على صليب" و ليس بمحض الصلصة أيضا أن يصرح "قي مولاي" رغم اشتراكه وإنسانية مبادئ حزبه بأن الحرب في الجزائر هي حرب صليبية بين المسيحيين والمسلمين متخذًا كدليل على ذلك تسمية الثوار الجزائريين لأنفسهم بالمجاهدين وهتافهم أثناء الاستشهاد بشعار "الله أكبر" (9).

كما أن في المجتمعات الأوروبية ورغم ادعائها المحافظة على قيم الديمقراطية فإن كثيرا ما تثار ذكريات الحروب الصليبية والغزو العربي الإسلامي إلى "بواتي" أو ما يسمى بـ "التعصب الإسلامي" أو النزاع التقليدي بين الصليب والهلال في كل احتكاك بين العالم العربي والغرب مثلما حدث في 11 سبتمبر 2001 التي كشفت عن لاشعور رؤساء الدول الغربية حيث أن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية لم يعبا بأصول الدبلوماسية وصرح أن حربه على الإرهاب جزء من الحروب الصليبية وهي مواقف واضح فيها التحيز إن لم نقل فيها الكثير من العداء.

في مقابل هذه الثقافة الأمر عندنا يختلف كلية فرغم أن جيش التحرير الوطني كان في الأشهر الأولى من ثورته يتصرف وفق اجتهادات خاصة ولا يملك إلا بعض التوجيهات العامة فإن الأمور قد اختلفت بعد عقد مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956م والذي سنت فيه القوانين التي يقف عندها كل مجاهد، ومن تلك القوانين تحريم الإعدام ذبحا والتمثيل بالأشخاص أو الجثث وتحريم شتى أنواع الاعتداءات حيث نص القانون مثلا على أن كل من يعتدي على عرض فتاة أو امرأة يحكم عليه بالإعدام.

فجاءت هذه القوانين - رغم صرامتها - متجاوبة كل التجاوب مع ما يعتقد فيه المجاهد من قيم دينية وما جبل عليه من أخلاق وما يشعر به من أحاسيس وما اعتاد أن يلتزم به من سلوكيات. على عكس الجندي الفرنسي فقد تخصص في الإجرام الخلفي ومارس الرذيلة حتى أصبحت راسخة في طبعه ويعسر عليه الانفلات منها رغم أن تلك الفضائع والموبقات التي كان يرتكبها الجيش الفرنسي في الجزائر خارجة عن نطاق الأعمال العسكرية وداخلية في نطاق الجرائم ضد الإنسانية أو على الأقل داخلية ضمن الجنائيات التي تعاقب عليها كل القوانين في العالم.

وليس من الغريب في شيء أن الشعب الذي يسمى متخلفا وجاهلا ومتعصبا ووصف بالوحشي والإرهابي هو الذي كان يناضل من أجل حقوق الإنسان وقاد معركته في ظل المثل العليا والأخلاق الرفيعة وأن الشعب الذي يسمى نفسه متملنا وراقيا في ثقافته وسلوكه هو الذي يحارب الأعزل بنذالة ووحشية تتحطم عندها كل القيم.

إلا أنه - رب ضارة نافعة - فرغم أن الشعوب العربية والإسلامية قد احتكت من قبل بأوروبا خلال الحروب الصليبية بين سنتي "1097 - 1294" والتي ما زالت روحها في نفسية الأوروبي إلا أن

شعوبنا العربية والإسلامية لم تنزلق نحو تقليد الآخر في نزعتة العنيفة والإجرامية فخلال تلك الحروب كان العرب أرقى حضاريا من أن يقلبوا الآخر.

كما أنه لما صاروا إلى الضعف والتخلف في القرن التاسع عشر ميلادي لم ينجرفوا كذلك بسهولة نحو تقليد الأقوى - مثلما يقول ابن خلدون - بل قد ساهم ذلك في إبراز وتنمية عوامل المقاومة في الإنسان العربي.. لأن الضعف يدعو صاحبه - في العادة - إلى المقاومة.

ومنه القول : لا يمكن قبول إعاء الغرب أن التراث اليوناني كان هو العامل الأقوى في تكيف ثم بروز الحضارة الإسلامية (10) لأن هذا الإدعاء قد نتج عن افتراض خاطئ مفاده أن جميع الأقطار التي انتشر فيها الإسلام كالسند والهند وما وراء النهر وفارس والعراق والشام وشمال إفريقيا والأندلس كانت قبل الفتح الإسلامي وبعد حملة الاسكندر المقدوني قد تبنت الثقافة الهيلينية وتخلت عن حضارتها الخاصة أو على الأقل كانت الثقافة الهيلينية هي العنصر الفعال والسائد في تلك الأقطار لأن الضعيف مولع دائما بتقليد القوي.

لأن ذلك أمر من الصعب تصويره وخبر لا تسنده الحقائق التاريخية علاوة على أن الواقع خلو تلك الثقافات أو ثقافتنا من تلك النزعة الجارفة لأصحابها نحو العنف والتي يمكن أن تكون مستمدة من الثقافة اليونانية، وإن وجبت فلما لا نعزها إلى التراث القبلي للعرب قبل الإسلام؟ النين اقتاتوا بسيوفهم حتى صار السلاح مصلا للفعل "ثقف" عندهم.

فإذا عدنا إلى مصادر اللغة العربية نجد لفظة "ثقافة" مشتقة من الفعل "ثقف" يقال: ثقف الرمح أو العود إذا سواه وأقام أعوجاجه ثم اتسع هذا المعنى الأصلي ليشمل دلالات أخرى منها التهذيب والتربية والتعليم والفضيلة والحنافة التي يكتسبها الفرد في حياته اليومية (11).

ومن المفارقة أنه رغم ذلك المصدر العنيف للفظ "ثقافة" عند العرب إلا أن روح الإسلام قد محت تلك الآثار من نفسية العربي وجعلته أكثر رقياً ورغم أن لفظة الثقافة *culture* تعني عند الإنسان الأوروبي "الزراعة" بكل ما تحمله من معاني النماء والبناء (12) إلا أن الواقع قد أثبت لنا أنه ذو شخصية ميالة للعنف والإرهاب.

من أجل ذلك كله لا يمكن أن يخطأ عاقل في الأبعاد الثقافية لكل سلوك والأصول الحضارية لكل مجتمع.

برات المغرب
يتقلب على
بداي حزيه
لك تسمية

ن كثيرا ما
ب الإسلامي
لما حدث في
ديات المتحدة
لصليبية وهي

لني كان في
بات العامة فإن
نين التي يقف
لجثث وتحريم
ة أو امرأة يحكم

قد فيه المجاهد
من سلوكيات.
لة حتى أصبحت
ن يرتكبها الجيش
ضد الإنسانية أو

ووصف بالوحشي
ل العليا والأخلاق
ني يحارب الأعزل

كت من قبل بأوروبا
سبة الأوروبي إلا أن

الإحالات

- 1- C.G. Jung *L'homme et ses symboles*. Pont royal paris p: 69.
- 2- إشارة إلى ما توصل إليه السير فرانسيس جالطون Sir Francis Galton حينما درس 977 أسرة بريطانية من ذوي المجد والشهرة وأثبت إمكانية انتقال المجد والشهرة بين أجيال الأسرة الواحدة أو ما توصل إليه داج نيل Dugdale حينما درس سبعة أجيال من ذرية أحد المجرمين فوجدها حلقة بالإجرام والانحلال واليؤس.
- 3- روبرت جولان: "السلام الأبيض" مدخل إلى الإبادة. باريس دار النشر لوسوي 1970 ص 248.
- 4- Bugeaud les constructeurs de la France D'outre-mer paris Editions correa 1946 p: 208.
- 5- جان بيون مقال: "ما قلقة الإثنولوجيا" تعريب بن عمر الصغير مجلة "الأصالة" العدد الخامس السنة الأولى نوفمبر 1971
- الجزائر وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ص 83.
- 6- زكي الدين عبد العظيم المنزري: مختصر صحيح مسلم تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي ببيروت ص 4. 1982 ص 536.
- 7- كامد التاريخ الصغير للجزائر والغرب وتونس الجزائر مطبعة جوردان 1891 ص 58.
- 8- Les méconnus de l'histoire pierre serval édité caliman-levy paris 1965 p: 45
- 9- د/ عبد الرزاق قسوم مقال: "توفيق والمجاهدون بالكلمة" مجلة "الأصالة" عدد خاص السنة الثامنة سبتمبر 1979 الجزائر وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ص 67.
- 10- هز هينرش شيدر: الشرق والتراث اليوناني ترجمة د/ عبد الرحمن بدوي تحت عنوان روح الحضارة العربية ببيروت 1949 ص 115.
- 11- ابن منظور: لسان العرب بيروت دار صادر 1956 للمجلد التاسع ص 19 - 20
- 12- دوتي سكوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية ترجمة د/ قاسم القصاد دمشق اتحاد الكتاب العرب 2002 ص 10 - 17.

شفا

أستا

يرتبه

العائلة لا تبر

مجموعة سلا

وجود مجمو:

كانت الأشك

سأحاول في ه

فألا:

(LS, John)

عدالة سياس

الشرط الضد

إن

الاجتماعية

عن طريق ال

مفهوم العدا

ثالث خاص

طريق العدا

تط

تطور مفهو

التحليل، إل

ترتبط ارتباطا

لا:

الاجتماعي

بفلاسفة ال

ية

ارتبطت ال

المجلة المغاربية